

AL HAYAT



الحياة

٤٢ صفحة

www.daralhayat.com

ابشرت الحياة عقيدة ووجه ساد

دستير من ورق... وانتخابات بمن حضر

وحيد عبد المجيد



«دستير من ورق: الدستائر العربية والسلطة السياسية» هو عنوان كتاب مهم للبروفيسور ناشان براون، ترجمه وعلق عليه عام ٢٠٠٧ الدكتور محمد نور فرحات الذي انسحب تحالف انتخابي كان هو أحد رموزه («تحالف صحوة مصر») من الانتخابات الناخبة المصرية الراهنة.

وإذا كان فرحات قد ترجم أحد أهم الكتب التي تفرق بين دول دستورية وأخرى فيها دستائر لا قيمة لها، فقد خاض هو شخصياً تجربة تؤكّد هذا المعنى. ففي كثير من الأحيان تكون الاستثناء بالدستور مرتبطة بانتخابات شكلية تخلو من تنافس سياسي وحزبي وبرامج وأفكار، فيما يشتعل الصراع فيها بين أصحاب الأموال والعصبيات المحلية. وفي مثل هذه الانتخابات، تقل مشاركة الناخبين وتكتاد أن تقتصر على من يُحشدون بواسطة مرشحين أقوياء بأموالهم أو بعضهما، ويطلق علىها بعض المختصين في دراسة العمليات الانتخابية المقارنة «انتخابات بمن حضر».

لذلك لا يثير استغراباً أن تزامن حملات تستهدف تعديل الدستور المصري الذي يُعد الإنجاز الوحيد الباقى لثورة ٢٥ يناير، بعد أن طال تحميده وكثُرت مخالفاته، مع انطلاق انتخابات منزوعة منها السياسة والحيوية اللتان اقتربتا بهذه الثورة، ومنصرفَة عنها قطاعات واسعة في مجتمع فقد الثقة بها لأسباب أهمها الارتباك الشديد الذي شاب إجراءاتها على مدى ما يقرب من عام.

وترمي الحملات، التي تمهد لتعديل الدستور الأفضل منذ دستور ١٩٢٣، إلى تفريغه من أهم نصوصه الجديدة، لكي يلائم «مقاسات» نظام الحكم الذي يتشكل الآن. وحين يكون الدستور مجرد كلام على ورق لا حياة فيه ولا نبض، يسهل إجراء عمليات قص ولصق فيه لكي يناسب أي نظام حكم، بدل أن يبني هذا النظام على أساسه.

ولا يجد بعض من رفعوا هذا الدستور إلى عنان السماء، وحشدو الناس لتأييده في الاستفتاء علىه في كانون الثاني (يناير) ٢٠١٤، أي حرج في إهالة التراب عليه الآن. فقد صنعوا حينذاك

وتربياً على ذلك انخفاض معدل التنافس على المقعد الواحد في الانتخابات الحالية إلى ٣,١٠ مترشح في المتوسط مقابل ٥,٢٠ مترشح في انتخابات ٢٠١١.

وإذا نجحت الحملات الهدافـة إلى حـمل البرـلمـانـ الجديدـ علىـ تعـديـلـ الدـستـورـ،ـ ربـماـ يـكونـ هـذـاـ التعـديـلـ جـوهـرياـ عـلـىـ صـعـيدـ الـحقـوقـ وـالـحرـياتـ الـعـامـةـ.ـ فـالـمـتـوقـعـ أـنـ يـكـونـ الـهـدـفـ الأسـاسـيـ للـتعـديـلـ هوـ المـوـادـ الـتيـ تـضـعـ ضـوابـطـ صـارـمةـ فيـ شـانـ تقـيـيدـ حرـيةـ الـمواـطنـ،ـ وـتـجـلـ التـعـديـلـ بـكـلـ أـشكـالـ،ـ وـالـاعـتـداءـ عـلـىـ الـحـريـةـ الـشـخـصـيـةـ وـالـحـقـوقـ وـالـحرـياتـ الـعـامـةـ،ـ جـريـمةـ لـاـ تـسـقطـ بـالـقـادـمـ.ـ وـهـنـاكـ أـيـضاـ النـصـوصـ الـتـيـ تـضـمـنـ حرـيةـ الـإـبـدـاعـ بـأـنـوـاعـهـ كـلـهـاـ،ـ وـتـحـظـرـ مـصـادـرـ أـيـ عملـ فـكـرـيـ أوـ أـدـبـيـ أوـ فـنـيـ إـلـاـ مـنـ طـرـيقـ الـقـضـاءـ،ـ وـتـحـمـيـ حقـ النـاسـ فـيـ اـسـتـخـادـ وـسـائـلـ الـاتـصالـ التقـلـيـدةـ وـالـإـلـكـتـرـوـنيـةـ،ـ وـتـقـوـرـ مـسـاحـةـ وـاسـعـةـ لـحـرـيـةـ الرـأـيـ وـالـتـعـبـيرـ،ـ وـتـحـظـرـ الـعـقـوبـاتـ السـالـبةـ لـلـحـرـيـةـ الـفـرـاجـ الـتـيـ تـرـتـبـكـ بـوـاسـطـةـ النـشـرـ وـغـيرـهـ مـنـ وـسـائـلـ الـعـلـانـيـةـ،ـ وـتـلـزمـ الـدـولـةـ بـتـقـيـيدـ الـمـعـلـومـاتـ وـإـتـاحـةـ الـحـقـ فيـ الـحـصـولـ عـلـىـ وـتـداـولـهـاـ،ـ وـتـكـفـلـ حرـيـةـ الـظـاهـرـ وـالـاجـتمـاعـ بـالـإـخـطاـرـ وـمـنـ دـوـنـ تـصـرـحـ مـسـيقـ.

وـالـمـتـوقـعـ أـنـ يـشـمـلـ التعـديـلـ أـيـضاـ إـذـاـ حدـثـ،ـ نـصـوصـ أـخـرىـ تـثـيـرـ قـلـقـ مـنـ لـاـ يـطـقـونـ نـظـامـ دـيمـوقـراـطيـ عـنـدـمـ يـقـرـأـ كـلـ مـنـهـاـ بـعـزـلـ عـنـ السـيـاقـ الـعـامـ،ـ فـمـثـلاـ تـعـطـيـ المـادـةـ ١٦١ـ الـبرـلمـانـ الـحـقـ فيـ سـحبـ الثـقـةـ مـنـ رـئـيسـ الـجـمهـوريـةـ وـالـدـعـوـةـ إـلـىـ اـسـتـفـتـاءـ عـلـىـ اـنـتـخـابـاتـ مـبـكـرـةـ وـلـكـنـ عـبـرـ إـجـراءـاتـ مـعـقـدةـ وـشـرـوطـ بـالـغـةـ الصـعـوبةـ مـنـهـاـ مـثـلاـ موـافـقـةـ ثـلـاثـيـ أـعـضـاءـ عـلـىـ الـأـقـلـ.ـ كـمـ تـحـكـمـ هـذـهـ المـادـةـ عـلـىـ الـبرـلمـانـ بـ«ـالـإـعدـامـ»ـ إـذـاـ رـفـضـ الشـعـبـ إـجـراءـ الـاـنـتـخـابـاتـ الـمـبـكـرـةـ،ـ إـذـ يـؤـديـ ذـلـكـ إـلـىـ حـلـ.ـ أـمـاـ المـادـةـ ١٣٧ـ فـتـعـطـيـ الـرـئـيسـ سـلـطـةـ الدـعـوـةـ إـلـىـ اـسـتـفـتـاءـ عـلـىـ حلـ الـبرـلمـانـ مـنـ دـوـنـ شـرـوطـ وـإـجـراءـاتـ.

لـذـكـ قـيـمـنـاـ تـسـتـغـرـقـ إـجـراءـاتـ سـحبـ الثـقـةـ مـنـهـاـ أـسـابـعـ عـدـدـ،ـ يـسـطـعـ هوـ إـصـارـ قـرارـ حلـ الـمـجـلسـ فـيـ دـائـقـائـمـ مـعـدـودـاتـ.

وـهـذـاـ يـظلـ الدـستـورـ فـيـ أيـ بـلـ وـرـقـ مـهـلـلةـ مـاـ لـمـ تـنـ هـنـاكـ إـرـادـةـ لـنـيـانـ نظامـ دـيمـوقـراـطيـ وـإـجـراءـ اـنـتـخـابـاتـ تـنـافـسـيـةـ حـدـيثـةـ يـقـبـلـ عـلـىـ غـالـبـيـةـ النـاخـبـينـ مـتـفـاـقـلـينـ مـسـتـبـشـرـينـ.

«ـزـفةـ»ـ لـهـذـاـ دـسـتـورـ بـوـصـفـهـ اـنـتـصـارـاـ وـطـنـيـاـ عـظـيـماـ وـإنـجـازـاـ تـارـيـخـاـ.ـ وـهـمـ يـصـنـعـونـ الـآنـ «ـزـفةـ»ـ مـضـادـةـ تـجـهـلـ اـنـتـكـاسـةـ وـطـنـيـةـ كـبـرىـ،ـ فـيـ أـجـواءـ تـفـقـرـ إـلـىـ التـفـكـيرـ وـالتـبـيـرـ.ـ وـكـانـ بـعـضـ هـؤـلـاءـ أـعـضـاءـ فـيـ لـجـنةـ الـخـمـسـيـنـ»ـ الـتـيـ وـضـعـتـ مـشـروـعـ دـسـتـورـ،ـ وـأـفـاضـوـاـ فـيـ شـرـحـ «ـفـضـائـلـ»ـ الـتـيـ يـرـوـنـهاـ الـآنـ «ـرـذـائـلـ»ـ!

كـتـبـ هـذـاـ دـسـتـورـ فـيـ لـحظـةـ تـفـاؤـلـ بـأـنـ تـكـونـ «ـ٣ـ٠ـ يـونـيوـ»ـ إـنـقـاذـ لـثـورـةـ ٢٥ـ يـانـايـرـ الـتـيـ قـفـزـتـ عـلـيـهاـ جـمـاعـةـ «ـالـاخـوانـ الـمـسـلـمـينـ»ـ وـصـادرـتـهـاـ لـمـحـصـلـةـ مـشـروعـهـاـ.ـ غـيرـ أـنـهـ لـمـ تـضـعـ أـشـهـرـ قـلـيلـ عـلـىـ إـصـارـهـ حتـىـ كـانـ الـقـوىـ الـمـضـادـةـ لـلـثـورـةـ قـدـ اـسـتـعـادـتـ نـفـوزـهـاـ،ـ وـصـادرـتـ «ـ٣ـ٠ـ يـونـيوـ»ـ لـمـحـصـلـةـ مـثـلـاـمـ فـعـلـ «ـالـاخـوانـ»ـ بـ«ـ٢٥ـ يـانـايـرـ»ـ.

وـتـسـيءـ هـذـهـ القـوىـ الـآنـ أـسـتـغـالـ عـبـارـةـ وـرـدـتـ عـرـضاـ فـيـ كـلـمـةـ الـقاـهاـ الرـئـيسـ عبدـ الفتـاحـ السـيـسيـ فيـ ١٢ـ آبـ (ـسـيـتمـبرـ)ـ الـمـاضـيـ،ـ وـهـيـ أـنـ «ـدـسـتـورـ كـتـبـ بـبـنـيـاتـ حـسـنـةـ،ـ فـيـماـ الـبـلـادـ لـاـ تـبـنـيـ بـهـذـهـ النـيـاتـ وـحـدـهـاـ»ـ لـلـانـقـاضـاـنـ عـلـىـ هـذـاـ دـسـتـورـ عـقـبـ الـإـنـتـخـابـاتـ.

وـبـخـلـافـ مـاـ يـحـدـثـ فـيـ الـدـولـ الـدـسـتـورـيـةـ،ـ وـهـوـ أـنـ يـتـولـىـ أـوـ بـرـلمـانـ يـنـتـخـبـ فـيـ ظـلـ دـسـتـورـ جـدـيدـ إـصـارـ القـوـانـينـ الـمـكـمـلـةـ لـهـ وـتـعـدـلـ القـوـانـينـ الـمـخـالـفـةـ لـكـيـ تـسـجـمـ مـعـهـ،ـ بـرـيدـ بـعـضـ مـنـ يـتـصـدـرـونـ الـمـشـهـدـ الـإـنـتـخـابـيـ الـراـهنـ أـنـ يـفـعـلـ الـبـرـلمـانـ الـجـدـيدـ عـكـسـ ذـلـكـ.

غـيرـ أـنـ مـنـ يـعـدـونـ لـتـفـرـعـ دـسـتـورـ مـنـ مـحـتوـاهـ الـدـيمـوقـراـطيـ عـبـرـ الـمـجـلسـ الـذـيـ سـتـسـفـرـ عـنـ هـذـهـ الـإـنـتـخـابـاتـ،ـ لـاـ يـنـتـبـهـونـ إـلـىـ أـنـ عـدـمـ النـاخـبـينـ الـمـتـوقـعـ مـشـارـكـتـهـمـ فـيـهـاـ قـدـ لـيـصلـ إـلـىـ نـصـفـ مـنـ اـقـتـرـعـوـاـ الـتـائـيـدـ ذـلـكـ دـسـتـورـ (ـأـكـثـرـ مـنـ ٢٠ـ مـلـيـونـ نـاخـبـ).

وـلـاـ يـعـتـمـدـ تـوـقـعـ اـنـخـافـضـ الـمـشـارـكـةـ فـيـ هـذـهـ الـإـنـتـخـابـاتـ إـلـىـ تـفـرـيفـهـ مـنـ أـهـمـ نـصـوصـ الـجـدـيدـةـ،ـ لـكـيـ يـلـامـ (ـمـقـاسـاتـ)ـ نـظـامـ الـحـكـمـ الـذـيـ يـتـشـكـلـ الـآنـ.ـ وـحـينـ يـكـونـ دـسـتـورـ الـحـيـوـيـةـ الـتـيـ تـفـتـقـدـ زـيـادـةـ وـنـقـصـاـنـاـ مـعـ مـعـدـلاتـ التـرـشـحـ.

وـقـدـ بـلـغـ عـدـدـ الـمـرـشـحـينـ فـيـ هـذـهـ الـإـنـتـخـابـاتـ نـحـوـ سـتـةـ لـآفـ مـرـشـحـ،ـ أـقـلـ مـنـ ٦٠ـ بـالـمـئـةـ مـنـ تـرـشـحـوـاـ فـيـ الـإـنـتـخـابـاتـ الـسـابـقـةـ (ـ٢٠١١ـ)ـ وـالـذـينـ كـانـ عـدـدـهـمـ أـكـثـرـ قـلـيلـ مـنـ عـشـرـ لـآفـ،ـ بـرـغمـ إـضـافـةـ ٦٠ـ مـقـعـداـ إـلـىـ الـبـرـلمـانـ الـمـقـبـلـ مـقـارـنـةـ بـسـابـقـةـ.

Walid 15